الباب الثانى

الفلسفة العقلانية

** الفصل الأول: ديكـــارت

** الفصل الثانى: اسبينـــوزا

** الفصل الثالـث: لـيـبـنـتـز

الفصل الأول

ديكارت: أباً للفلسفة الحديثة

- تمهـــيد
- حياتـــه وأعمـالـــه
- المنهج الـديـكارتـى
- الشـك المنـهـجـى
- ميتافيزيقا ديكارت

تمهـيد

فلسفة "ديكارت" هى فلسفة العقل (*) الذى يفتح للإنسان آفاق المعرفة والعلم، ويغزو بنوره عالم السماء والأرض، فإذا أحسن المرء استعماله ؛ استطاع أن يسخره لخدمة الإنسانية وإسعادها، وحفظ صحتها وتوفير رخائها وتوطيد دعائم السلام بين أفرادها وجماعاتها. ولعل من فضل "ديكارت" على الإنسانية المفكرة أن أصبح واضحاً للعيان أن المثل الأعلى للوجود الإنسانى هو تحقيق وعى الإنسان بذاته ولمكانه فى العالم، بحيث يرد جميع آرائه إلى أفكار واضحة متميزة .

وقد كان لـ "ديكارت" أكبر الفضل فى بناء صرح الاتجاه العقلى الحديث، حين وضع قاعدته المنهجية المشهورة: "يجب أن لا أقبل شيئاً قط على أنه حق ما لم يتبين لى بالبداهة العقلية أنه كذلك، ويجب أن لا أحكم على الأشياء إلا بما يتمثله ذهنى فى وضوح وتميز ينتفى معهما كل سبيل إلى الشك". وقد قيل أن ما يسمى فى الفلسفة باسم "الثورة الديكارتية" يتلخص فى القاعدة التى تتطلب البداهة فى كل معرفة وفى كل يقين، لأنها إنما تدعو إلى رفض كل سلطة تحاول أن تفرض نفسها على التفكير، ولا تقبل إلا حكم العقل الذى لا يرى للحقيقة معياراً إلا البداهة

(*) بالغ أنصار المذهب العقلى فى دور العقل فى عملية المعرفة، وهم يرون إمكان التوصل إلى معرفة حقة تتسم بالشمول والضرورة، أى لا تكون عرضية أو مخالفة لقواعد المنطق. وقد اختلف العقليون فيما بينهم فى استخدام العقل للوصول به إلى المعرفة، فقال "ديكارت" بـ "الأفكار الفطرية" وذهب "كانط" إلى وجود مبادئ قبلية فى العقل ؛ أى مبادئ فى ذهن الإنسان قبل أى تجربة. وطابق السيكولوجيون بين العقل وبين الحالة النفسية للإنسان، وهم ينصبونه فوق المشاعر وفوق الإرادة. أما فلاسفة الأخلاق فقد نفوا الأصل التجريبى للمبادئ الخلقية ومعاييرها، فهم ينفون كونها نابعة من العلاقات العملية بين الناس. ويذهب "كانط" إلى هذا الرأى بصورة قاطعة.
إذن يعترف المذهب العقلى بسلطان العقل ورد الأشياء إلى أسباب مقبولة، كما يفسر المعرفة فى ضوء مبادئ أولية وضرورية أى مبادئ قبلية – كما سبق القول – لأن الحواس لا تستطيع أن تزودنا إلا بمعلومات غامضة ومؤقتة.

والوضوح [1].

والكثيرون من مؤرخى الفكر الغربى يعتبرون هذا الفيلسوف أباً روحياً للثورة الفرنسية، أحدثت آراؤه فى الفلسفة وفى العلم هزة عنيفة فقوضت مذهب أرسطو، وقضت على علم العصر الوسيط، وأيدت سلطان العقل.

إن التجديد الحقيقى الذى استحدثه "ديكارت" فى الفلسفة هو تحليل المبادئ، فالفلسفة – كما يراها – هى دراسة الحكمة، والحكمة علم واحد كلى، هى تفسير جامع للكون أو هى نظام شامل للمعرفة البشرية. وليست الفلسفة مجرد مجموعة معارف جزئية خاصة وإنما هى علم المبادئ العامة، بمعنى أنها علم للأصول التى هى أسمى ما فى العلوم. الفلسفة عند "ديكارت"، إذن، يدخل فيها علم الله وعلم الطبيعة وعلم الإنسان، لكن دعامة الفلسفة عنده إنما هى فى الفكر المدرك لذاته والذى هو فى ذاته مدرك الموجود الكامل "الله" منبع كل وجود والضامن لكل حقيقة [2].

والفلسفة عند فيلسوفنا نظر وعمل، والنظر هو بمثابة الأساس الذى يقوم عليه العمل. ولقد بين "ديكارت" ماهية الفلسفة وموضوعها فى مقدمة كتابه المبادئ، فقال:

> **« لفظ الفلسفة هذا معناه دراسة الحكمة، وليس معنى الحكمة قاصراً على الحيطة والتبصر فى الأمور، بل تفيد أيضاً فى معرفة جميع الأشياء التى يستطيع الإنسان معرفتها، إما لهداية حياته أو المحافظة على صحته أو لاختراع جميع الفنون »** [3].

ولم تقف فلسفة "ديكارت" عند التأمل والنظر المجرد ـ كما كان شأن الفلسفات السابقة عليها ـ وإنما أرادت أن تمضى إلى العمل والتطبيق، رامية إلى التغيير الجذرى والتأثر الحاسم. فليس الغرض من المعرفة، عند "أبى الفلسفة الحديثة، اكتساب الحكمة والتبصر فى الأمور فحسب، بل تحقيق السيادة للإنسان على نفسه وعلى الطبيعة.

كانت أعز أمانى الفيلسوف أن تكون الفلسفة عوناً لنا فى حياتنا، لا على أن ندبر أفكارنا وآراءنا تدبيراً حسناً فحسب، بل على أن ندبر سلوكنا وأن نسيطر على أبداننا وأن نقهر الموت، وظل هذا الحلم يراود "ديكارت" فى مراحل نشاطه العقلى: أن تقدم الفلسفة للإنسان طريقاً للحياة الجديدة، يهيئ له أن يملك زمام نفسه عن طريق فن عقلى لضبطها والتحكم فيها، وأن يهيمن على الطبيعة عن طريق "تعقيلها"، أى بث الضوء الساطع فى أرجائها الحالكة.

* * * *

حياتـه وأعـمالــه

حياة "ديكارت" حياة جوانية كلها، أعنى أن للروح فيها المقام الأول، فقد قضى الفيلسوف شبابه باحثاً عن الحقيقة، منقباً عن المشكلات العلمية، دائباً على حلها، وأنفق أخصب سنوات عمره فى مختلف أنحاء هولندا، طالباً ملاذاً مأموناً يعينه على أن يفكر وأن يتأمل فى إمعان واطمئنان.

ولد فى 31 مارس عام 1596 بمدينة "لاهى" La Haye وهى مدينة صغيرة فى إقليم "التورين" غربى فرنسا. وكان أبوه "جواشيم ديكارت" مستشاراً فى برلمان "رن" Ronnes عاصمة إقليم "بريتانى" فى شمال غربى فرنسا.

ويمكن تقسيم مراحل حياة "ديكارت" (*) إلى ثلاث مراحل على النحو التالى:

★★ المرحلة الأولى :

التحق خلالها بمدرسة الآباء اليسوعيين المعروفة باسم "مدرسة لافليش"(*) La fleche عام 1606 (وكانت من أشهر مدارس أوروبا آنذاك) مكث بها ثمان سنوات ودرس اللغات القديمة والمنطق والأخلاق والرياضيات والميتافيزيقا. وفى السنوات الثلاث الأخيرة درس الفلسفة وكانت تنقسم إلى أقسام ثلاثة: المنطق والطبيعة وما بعد الطبيعة. وكان أستاذه فى الفلسفة راهباً يدعى الأب "فرانسوا فيرون" François Véron. وعرف فى المدرسة أنه كان متمسكاً بالدين، مخلصاً للملك [4].

(*) كان "ديكارت" ضعيف البنية، لكنه أظهر فى عهد طفولته ذكاءً نادراً ومواهب ملحوظة فكان أبوه يسميه "الفيلسوف الصغير" لشدة ميله إلى التروى وإمعان الفكر؛ ولكثرة الأسئلة التى كان يوجهها إلى من حوله.

(*) أسسها اليسوعيون عام 1603 وكان ملك فرنسا هنرى الرابع قد وهبهم داراً لها فأطلقوا عليها اسم "المدرسة الملكية". وعنى اليسوعيون بأمور التعليم فيها، واختاروا لها خير الرؤساء والمدرسين، حتى أصبحت – كما يقول "ديكارت" – من أشهر مدارس أوروبا وأنها خير مكان تعلم فيه الفلسفة.

★★ المرحلة الثانية

وتمتد المرحلة الثانية من عام 1613 حتى عام 1629، قضاها فى الأسفار منتقلاً بين فرنسا وسويسرا وهولندا وإيطاليا. وقصد إلى باريس عام 1613 والتقى بالعالم الرياضى "ميدروج" كما التقى بصديقه وزميله الأب "مرسين" وهناك واصل دراسة القانون وحصل على إجازة الحقوق عام 1616.

وفى عام 1618 سافر إلى هولندا والتحق بجيش "موريس دى نساو" Mauriee du Nassau لكنه لم يشترك فى أى قتال. وفى هولندا التقى بالعالم الرياضى "إسحق بيكمان" Isaac Beceman فصادقه "ديكارت" وأهدى إليه رسالة فى الموسيقى وهى باكورة مؤلفات الفيلسوف. ولقد كتب إليه ديكارت عام 1619 قائلاً: "كنت نائماً وأنت الذى أيقظتنى" وكتب إليه فى مارس من العام نفسه يقول بأنه مشتغل "بإقامة علم جديد كل الجدة يمكن بواسطته أن تحل جميع المسائل المعروضة للبحث".

وخلال عام 1619 إلى عام 1920 وقعت الحادثة التى كان لها أكبر الأثر فى حياة "ديكارت" حين كان فى بلدة "نويبرج" إذ عايش تجربة عقلية فريدة، عزل نفسه خلالها عن الناس، وعكف يتأمل ويمعن الفكر فى خواطر أدت به إلى نظريته العامة فى المنهج للبحث عن العلوم وقيل أنه اكتشف فى تلك الليلة "أسس العلم العجيب" وقد تضاربت الأقوال حول هذا العلم، هل كان يقصد به "قواعد المنهج" أم الرياضة أم أنه "الكوجيتو" [5].

ويمكن أن نحدد هنا ثلاث نقاط أساسية بعد هذه التجربة :

1- إن العلوم جميعاً ليست إلا علماً واحداً، وإن مفتاحاً واحداً يفتح جميع كنوزها.

2- على الفيلسوف أن يبحث عن ذلك المفتاح فى نفسه وليس خارجها .

3- إن الدعوة التى تلقاها "ديكارت" كانت من الله تعالى، ولم يكن مصدرها الشيطان الماكر.

★★ المرحلة الثالثة

فترة أقام فيها بهولندا، وفيها كتب أهم مؤلفاته: "قواعد لهداية العقل" عام 1629، وهى رسالة فى المنطق الجديد المعارض للمنطق الأرسطى التقليدى. و"رسالة فى العالم" عام 1631، وقد قال فيها بدوران الأرض، ولكنه حجبها عن النشر خشية أن يحل به غضب الكنيسة كما حل بالعالم "جاليليو". وكتاب "مقال فى المنهج" عام 1673. وفيه بين تاريخ أفكاره وخصائص منهجه. وكتاب "التأملات فى الفلسفة الأولى" عام 1641، وهو أبدع ما كتب الفيلسوف فى الميتافيزيقا بوجه عام وفى النفس الإنسانية، وفى الأدلة على وجود الله، ثم كتاب "مبادئ الفلسفة" عام 1644 ؛ وفيه عرض مبسط لفلسفته، وبيان لمدى اختلافها عن القدماء. وأخيراً "رسالة فى انفعالات النفس" عام 1649. وتهدف إلى بيان السبيل العلمى للسيطرة على الأهواء والشهوات والوصول إلى الحياة السعيدة الفاضلة [6].

ولا جدال فى أن كتاب "المقال فى المنهج" هو الذى خلد اسم "ديكارت" فى تاريخ الفكر الإنسانى – وسيظل به مذكوراً على مر العصور – فقد وقف الفيلسوف على ما كان شائعاً فى زمانه من اختلاف فى الآراء بين العلماء والفلاسفة ورجال اللاهوت. واتضح له أن ذلك الاختلاف ناشئ من أنهم جميعاً يتخبطون فى بحوثهم وأنظارهم، ويسيرون فيما يشرعون فيه على غير هدى، دون أن تكون لديهم خطة مرسومة أو منهج محدد واضح. وتراءى له أن أول ما يلزم من أدوات التفلسف للإنسان الواعى هو الشعور بضرورة المنهج، ثم إيجاده وتطبيقه فى مجالى النظر والعمل معاً.

* * * *

المنهج الديـكارتى

تميز القرن السابع عشر بميزة هامة، وهى عناية المفكرين فيه بمسألة المنهج أو الطريقة الواجب اتباعها فى البحوث العقلية. والواقع أن الكتب فى المنهج كثيرة ومتعددة فى ذلك العصر، خاصة ابتداء من عام 1630. ففى ذلك التاريخ ظهر كتاب "الأورجانون الجديد" لـ "بيكون"، وبعد ذلك بنحو سبع عشرة سنة نشر "ديكارت" "المقال فى المنهج". ونشر أيضاً "اسبينوزا" رسالته "إصلاح العقل" ونشر "مالبرانش" كتابه "البحث عن الحقيقة"، وكتب "ليبنتز" عدة رسائل تحت عنوان "المنهج".

إذن، فالعناية بالمنهج سمة من سمات القرن السابع عشر، وجميع مفكرى ذلك العصر كانوا مؤمنين بفائدة المنهج وأثره فى العلوم وفى الحياة. ولقد بين لنا "هاملان" سبب ذلك قائلاً :–

« إن أهل ذلك العصر كانوا قد ألقوا عن كواهلهم عبء الخضوع للسلطات فى الفلسفة، بل أحياناً فى الفكر على العموم، وفى المعتقد أياً كان. وكان لابد لهم من شىء يطمئنون إليه ويهتدون به. والمنهج هو الكفيل بذلك » [7].

كذلك رأى "ديكارت" أن البحث فى المنهج هو أهم المشكلات وأولاها بالعناية فى مهمة الفيلسوف، وأراد أن يجعل بداية إصلاحه الفكرى الظفر بطريقة قويمة للحصول على المعرفة الحقيقية، بواسطة ذلك النور الفطرى المبثوث فينا جميعاً وهو "نور العقل".

ومن هنا قال "ديكارت" عن المنهج :

« جملة قواعد مؤكدة، تعصم مراعاتها ذهن الباحث من الوقوع فى الخطأ، وتمكنه من بلوغ اليقين فى جميع ما يستطيع معرفته، دون أن يستنفد قواه فى جهود ضائعة ».

وهو يتساءل عن جدوى الدراسات والبحوث التى لا نكتسب منها إلا آراء ظنية أو احتمالية. وهو يجيب عن التساؤل بما معناه أن الجهل التام خير من المعرفة المزعزعة الناقصة، ولن يكون العلم علماً إلا إذا كان يقيناً ونموذج ذلك يقين "العلوم الرياضية". وحسبنا أن نراعى فى بحوثنا أموراً ثلاثة، لنضفى على أى علم يقيناً يعادل يقين "العلوم الرياضية".

1- أن لا ننشغل إلا بمعان "واضحة" و"متميزة"، أى معان مضمونها بديهى كل البداهة.

2- أن نذهب دوماً من "المعانى" إلى "الأشياء" أى أن لا ننسب إلى الأشياء إلا ما ندركه إدراكاً "بديهياً" فى معانى الأشياء.

3- وأن "نرتب" جميع أفكارنا فى نسق خاص بحيث يكون كل معنى منها مسبوقاً بجميع المعانى التى يستند إليها، وسابقاً على جميع المعانى التى تستند إليه.

★★ أسس المنهج الديكارتى :

كان "ديكارت" بفطرته مولعاً بالرياضيات، ولهذا لم يستهوه مما تعلمه فى مدرسة "لافليش" إلا الرياضيات ؛ لأنه وجد من اليقين ما لم يجده فى سائر العلوم. لقد درس من بين أقسام الفلسفة "المنطق"، ومن بين الرياضيات ؛ تحليل القدماء وجبر المحدثين، لكنه لم ير فى المنطق فائدة تذكر، لأن هذا العلم يقتصر على أن يستجلى من مقدمات نتائج متضمنة فيها من قبل، إنه إذن يفسر العلم دون أن يزيد فيه شيئاً. أما التحليل الهندسى والتحليل الجبرى فلهما شأن آخر.

أما التحليل فقد قصد منه القدماء وسيلة للاكتشاف، يقول:

« التحليل هو طريق يبدأ مما نبحث عنه كما لو كنا سلمنا به، ويؤدى به بواسطة النتائج المستخلصة من هذا إلى شىء يسلم به فعلاً. أننا فى التحليل نسعى إلى معرفة ما يستنبط منه ؛ ثم ماذا يستنبط من هذا الأخير حتى نجد شيئاً معلوماً أو مبدأ من المبادئ. وطريقة السير هذه نسميها « التحليل » [8].

إذن فالتحليل يقوم فى إرجاع المطلوب بواسطة التقسيم إلى مطلوب آخر أبسط ويستمر هكذا حتى نصل إلى قضية معترف بصحتها. ومن هذا التقدم فى الرياضيات استخلص "ديكارت" أسس منهجه فقال :

« جميع الأفعال الذهنية التى نستطيع بها أن نصل إلى معرفة الأشياء دون أن نخشى الزلل عبارة عن فعلين اثنين هما الحدس والاستنباط » [9].

★★ الحدس Intuition :

الحدس عند "ديكارت" هو الرؤية العقلية المباشرة التى يدرك بها الذهن بعض الحقائق التى يعتقد فيها الإنسان ولا يتطرق إليها الشك. الحدس نظرية عقلية بلغت من الوضوح والتميز أن زال معها كل شك، وهذا الفعل لا يتعلق بالحواس ولا الخيال وإنما يختص بالذهن، أى الذهن الخالص الصافى، يقول "ديكارت":

« أقصد بالحدس لا شهادة الحواس ولا الحكم الخداع حكم الخيال، وإنما أقصد به الفكرة التى تقوم فى ذهن خالص، وتصدر عن نور العقل وحده ».

الحدس عند "ديكارت" عمل عقلى يدرك به الذهن فكرة ما من تصور أو حكم أو استدلال، يفهمها بتمامها فى زمان واحد لا على التعاقب. ولا يقتصر على المعانى والأفكار، بل يتناول أيضاً حقائق لا تقبل الشك، كما يتناول الطبائع البسيطة أى الخواص الطبيعية المجردة التى تدرك بالذهن إدراكاً مباشراً ؛ ويمكن أن نستخلص منها جميع الطبائع الأخرى مثال ذلك: الوجود والوحدة والامتداد والحركة والشكل والزمان والمكان. كذلك أفعال المعرفة والشك والإرادة [10].

★★ الاستنباط Deduction :

الاستنباط قوة نفهم بها حقيقة من الحقائق نتيجة حقيقية أخرى أبسط منها. وهو "فعل ذهنى بواسطته نستخلص من شىء لنا به معرفة يقينية نتائج تلزم عنها". أو عملية "تنتقل من الواحد إلى الآخر، ومن حد إلى الحد الذى يليه أو

الذى يلزم عنه مباشرة وضرورة.

و"ديكارت" لا يقصد بالاستنباط نموذج القياس الأرسطى، ولكن يقصد به أن ننتقل من فكرة حدسية إلى نتيجة تصدر عنها صدوراً ضرورياً – أى لا يمكن تصور نقيضها – ومن ثم تكون النتائج المستنبطة حدسية هى الأخرى. وأراد "ديكارت" أن يتم الاستنباط الفلسفى بنفس طريقة الاستنباط الرياضى حيث تؤدى نتائجه إلى معلومات جديدة لم تكن متضمنة فى الفكرة الحدسية الأصلية.

إلا أنه ليس من السهولة بمكان أن نكتشف بالحدس المبادئ الأولى للعلم والفلسفة، ثم نقوم بعملية استنباط جديدة، ونحن هنا نستعين بالتجربة ودورها الحيوى لكى يساعدنا على اكتشاف النتائج الصحيحة التى وقع عليها اختيارنا بصورة لا تقبل الشك .

وهكذا، فالحدس والاستنباط والتجربة هى المراحل التى يتعين علينا إتباعها للوصول إلى المعرفة الحقيقية اليقينية، بشرط أن نجيد استخدامها بطريقة صحيحة [11].

* * * *

قواعد المنهج الديكارتى

استخلص "ديكارت" أربع قواعد نجدها فى كتابه "المقال فى المنهج" والغرض منها وصف الطرق التى يعمل فيها الذهن حين يفكر تفكيراً رياضياً. وهى :

1ـ قاعدة البداهة والوضوح .

2ـ قاعدة التحليل .

3ـ قاعدة التركيب .

4ـ قاعدة الإحصاء .

★★ القاعدة الأولى :

« أسلم بشىء على أنه حق ما لم يتبين لى بالبداهة أنه كذلك، ومعنى هذا أن أحذر من كل تسرع أو ميل إلى الهوى، وألا أدخل فى حكمى شيئاً آخر مما هو حاضر أمام عقلى من وضوح وتميز بحيث أجد مبرراً للشك فى صحته » .

ومعنى القاعدة الأولى أنه على الإنسان – من أجل بلوغ الحقيقة – أن يتحرر أولاً من كل المعتقدات السابقة، وألا يقبل بعد ذلك على أنه حقيقة إلا ما هو بين للعقل. والأمر يكون بيناً للعقل إذا اتصف بصفتين "الوضوح" و "التمييز". ويوضح "ديكارت" معنى هاتين الصفتين فى كتابه "قواعد لهداية العقل" فيقول :

« إن الأشياء تكون واضحة ومتميزة إذا كانت من البساطة بحيث لا يستطيع العقل أن يقسمها إلى أشياء أقل بساطة مثل: الشكل والامتداد والحركة .. إلخ ونحن نتصور سائر الأشياء كأنها مركبات من هذه » [12].

هذه الأشياء ندركها لا بالحواس الخداعة ولا بالخيال المزور، وإنما بالعقل الواعى الذى لا يبقى لديه شك فيما يدركه نظراً لوضوحه وتميزه عن غيره .

★★ القاعدة الثانية :

« أن أقسم كل مشكلة نتناولها بالبحث إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء بمقدار ما تدعو الحاجة إلى حلها على أكمل الوجوه » .

كل بحث يتضمن "مشكلة" وهى عبارة عن مسائل معقدة يطلب تفسيرها أو حلها. ومن أجل ذلك يجب علينا أن نقسم تلك "المشكلة أقساماً كثيرة بقدر ما يلزم لإزالة كل غموض فى معناها. وبعبارة أخرى، ينبغى أن نقسم المشكلة المعقدة إلى مشكلات أبسط منها، وهذه بدورها إلى أبسط منها ؛ حتى نصل إلى المعانى البسيطة كل البساطة بحيث لا تقبل القسمة ويعتمد عليها المجموع. وعندئذ يلزم أن نعالج على حدة كل مسألة من تلك المسائل الجديدة وقد أصبحت أوضح وأبسط"[13].

★★ القاعدة الثالثة :

« أن أرتب أفكارى بادئاً بأبسط الأشياء وأسهلها معرفة ثم أصعد خطوة خطوة صعوداً متدرجاً حتى أصل إلى معرفة ما هو أعقد. وإذا اقتضى الحال ترتيباً معيناً بين الأفكار – وهو ليس من طبيعتها أن يتبع بعضها بعضاً » .

إذا وصل العقل إلى العناصر البسيطة صار عليه أن يسلك فى اتجاه معاكس للسابق، بأن يبدأ من المبادئ والمعانى البسيطة ويمضى منها إلى نتائجها، وينتقل من العناصر إلى المركبات فيطلع بذلك على تكوين الأشياء. وهذا ما دعت إليه "القاعدة الثالثة" ونجد فى كتاب "قواعد لهداية العقل" شرحاً لهذه القاعدة فيقول (بعد أن ذكر وجوب إرجاع القضايا الأشد غموضاً وتركيباً إلى قضايا أقل غموضاً وتركيباً)

« إن علينا أن نبدأ من هذه الأخيرة ابتغاء الوصول، صعوداً على نفس الدرجات، إلى معرفة القضايا الأخرى » .

وبهذا يحدد "ديكارت" طريقة التقدم فى المعرفة، من الأبسط إلى الأشد تركيباً.

★★ القاعدة الرابعة

« ينبغى فى كل حالة أن أقوم بالإحصاءات التامة والمراجعات الكاملة، بحيث أوقن أننى لم أغفل من جوانب المشكلة شيئاً ».

وتسمى هذه القاعدة "الإحصاء" أو "الاستقراء"، ويقصد بها الثقة من أننا لم نغفل أى جزء من أجزاء المشكلة التى نكون بصدد حلها، وأن نستعرض جميع استدلالاتنا بحركة موصولة غير مقطوعة ؛ لكى نتفادى – قدر المستطاع – ذلك الخطر الذى ينجم عن تدخل الذاكرة فى الاستدلال ؛ ولكى نصل إلى أن نقرب بين الاستنباط والحدس [14].

هذا هو المنهج الذى أراد "ديكارت" أن يكون منهجاً للعلم والفلسفة. وأهم ما يميزه البداهة واليقين، وهو لا يفرض قيوداً على العقل بل يجعله مستقلاً، حراً ينطلق وراء الحقيقة ؛ بينما كان منطق أرسطو جامداً لا يسمح بالتقدم الفكرى والخروج عن المقدمتين. ولقد قال "ديكارت" :

« أن أكثر ما يرضينى هو أننى استعملت المنهج العقلى، إن لم يكن على وجه كامل، فعلى الأقل على أفضل وجه ممكن ».

* * * *

الشك المنهجى

كان هناك فلاسفة يدعون إلى الشك قبل "ديكارت"، ومن أهمهم شكاك اليونان الذين عاشوا فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الميلادى. هؤلاء غالوا فى الشك إلى الحد الذى جعلهم يشكون فى قيمة العقل نفسه، وفى الحقيقة ذاتها. وكان الشك هو مذهبهم الذى لا يحيدون عنه، ولذلك سمى بـ "الشك المذهبى".

وفى عصر "ديكارت" ظهرت دعوة جديدة إلى الشك من جانب بعض الأدباء مثل "مونتينى" و "شارون" وكانوا يتشككون فى قيمة المعارف الإنسانية، والعلوم الموجودة فى عصرهم، ولكنهم لم يتشككوا أبداً فى قيمة العقل وقدرته، وفى كتاب "التأملات الميتافيزيقية" يستخدم "ديكارت" الشك كوسيلة منهجية من أجل الوصول إلى الحقيقة التى لا يمكن أن يتطرق الشك إليها [15].

ولما كان مطلب الفيلسوف بلوغ "اليقين" الذى يمكن أن يقيم عليه بناء العالم كله، فقد صمم على أن يشك فى كل ما تعلمه من قبل ؛ وأن يمضى فى هذا الشك إلى أبعد حدود، بادئاً النظر كله من جديد، وكأن عينيه متفتحتان لأول مرة على العالم من حوله. وإذن فالخطوة الأولى التى يفضى بها المنهج الفلسفى هى "تعليق" آرائنا عن الأشياء، ووقف أحكامنا عليها، ريثما نتبين حقائقها، يقول "ديكارت" فى كتابه "التأملات" :

« للفحص عن الحقيقة يحتاج الإنسان مرة فى حياته إلى أن يضع الأشياء جميعاً موضع الشك بقدر الإمكان ».

« فقد تلقيت طائفة من الآراء الباطلة، وكنت أحسبها صحيحة، فحكمت حينئذ بأنه لابد لى مرة فى حياتى من الشروع الجدى فى إطلاق نفسى من جميع الآراء التى تلقيتها فى اعتقادى من قبل، ولابد من البدء فى بناء جديد من الأسس،

إذا كنت أريد أن أقيم فى العلوم شيئاً وطيداً ومستقراً ».

« وسأبدأ أولاً بالهجوم على المبادئ التى كانت تعتمد عليها آرائى القديمة كلها، سواء أكانت أحكاماً فرضها على الغير من معلمين أو مربين أو مرشدين أو من وكل إليهم أمرى، أم أحكاماً ومعلومات اكتسبتها أنا عن طريق الحواس» (16).

★★ الشك فى الحواس

استبعد "ديكارت" شهادة الحواس (★)، لأنها تخدعنا أحياناً، ومن الفطنة أن لا نأمن لمن خدعنا مرة، ثم أقر كالغزالى بأننا نعتقد فى النوم أموراً ونتخيل أحوالاً ونحسب لها ثباتاً واستقراراً، ثم نستيقظ فنعلم أن ما رأيناه أثناء النوم كان حلماً. إذن فما المانع من أن تكون تصوراتنا فى اليقظة كتصوراتنا فى النوم كلها خيالات لا حاصل لها، كما ليس هناك إمارات يقينية يمكن أن نميز بها اليقظة من النوم بوضوح وجلاء.

ثم استبعد "ديكارت" شهادة العقل نفسه، لأن بعض الناس قد يخطئون فى الاستدلال ولو فى أبسط قضايا الهندسة، وافترض أن هناك "شيطان ماكر" مخادع يعبث بعقلى، فيرينى الباطل حقاً والحق باطلاً، ويحدثنى بحيث أخطئ على الرغم مما قد يكون لدى من يقين نفسى (17).

وهكذا استبعد "ديكارت" شهادة الحواس، بل شهادة العقل نفسه. وبالجملة رأى أن "من واجبى أن أشك فى وجود العالم الخارجى وفى حقيقة الأشياء المحيطة بى، وفى وجود أشباهى من الناس، وفى جميع الأحكام التى تبدو أوضح القضايا وأكثرها بداهة. والإنسان بعد أن يكون قد شك فى كل هذا، يكون قد تهيأ إلى أن يصل إلى اليقين الأول، وهو يقين النفس أو "الكوجيتو"، لأن ثمَّة شيئاً واحداً يظل

(★) شك "ديكارت" مثل "الغزالى" (1059 – 1111م) فى شهادة الحواس وشهادة العقل. وقال الغزالى: "من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر يبقى فى العمى والضلال".

دائماً بمنأى عن الشك وهو "الفكر"، وحتى لو فرضنا أن الإنسان شك فى أنه يفكر، فمثل هذا الشك يقتضى أن يفكر، لأن الشك ضرب من ضروب التفكير. "فأنا أفكر أى أشك" وبذلك وضع "ديكارت" أساس اليقين الأول وهو "يقين الفكر"، وقال عبارته المشهورة :

« **أنا أفكر إذن أنا موجود** » .

وقد وصل فيها إلى حقيقة وجوده ابتداءً من الفكر، بعد أن كان قد وصل إلى حقيقة التفكير نفسه ابتداءً من الشك، بحيث نستطيع أن نلخص فكر "ديكارت" على هذا النحو "أنا أشك فأنا إذن أفكر، وأنا أفكر فأنا إذن موجود".

إن الشك المنهجى لا يرمى إلى هدم إمكانية المعرفة – كما هو الحال فى الشك المذهبى – بل هو يرمى، على العكس، للوصول إلى المعرفة اليقينية وإقامتها على أسس سليمة. فهناك إذن فارق كبير بين الفيلسوف صاحب الشك المذهبى والفيلسوف الذى يستخدم الشك كمنهج [18].

* * * *

ميتافيزيقا ديكارت

صنع الفيلسوف أدوات للبحث عن الحقيقة، وهو الآن شارع فى استعمالها لتلك الغاية ؛ أى أنه يريد أن يبلغ مرتبة اليقين التام. ومن أجل ذلك حاول أن يقيم بناء العلم كله على أسس جديدة، لكن أساس البناء هو "الميتافيزيقا"، فهى وحدها سند اليقين، أى أنها تكفل صحة الأفكار الواضحة فى صلاتها بعضها ببعض وفى صلاتها بالحقائق الواقعة، وتبرز تطبيقاتها العملية فى الميكانيكا والطب والأخلاق. ولقد عبر "ديكارت" عن هذا على نحو آخر فقال:

« لنفرض أن رجلاً ليس عنده بعد إلا المعرفة الدارجة الغامضة التى يستطيع الناس اكتسابها بالتجربة الشائعة المتداولة، وبالحواس، وبالمحادثات، وبمطالعة الكتب ؛ فما النظام الذى لابد من إتباعه لاكتساب المعرفة ؟ ».

رأى "ديكارت" أنه يجب على الإنسان أن يسعى إلى أن يقيم لنفسه مذهباً أخلاقياً يكفيه لكى تكون أفعاله فى الحياة على هدى. وبعد ذلك إذا أراد الوصول إلى الحقيقة فى المسائل النظرية، وجب عليه أن يتدرب على المنهج، وأن يمارس قواعده لكى يصل إلى استعمالها فى يسر واطمئنان [19].

وبعد أن يطول مران الإنسان على استعمال المنهج، يجب أن يبادر بالنظر فى الفلسفة الحقيقية التى جزؤها الأول "الميتافيزيقا" والثانى "الفيزيقا" إذن، المنهج قد ألف ليكون سبيلاً لإقامة الميتافيزيقا التى منها يكون الشروع فى كل ما عداها.

★★ أنا أفكر فأنا موجود Cogito ergo sum

هذا هو مبدأ "الكوجيتو" المشهور الذى جعله "ديكارت" نقطة انطلاق الميتافيزيقا الحقة، والذى استخرج منه سلسلة بديعة من النتائج: أولها أن الإنسان

يفكر، وأنه موجود من حيث أنه مفكر. وهذه الحقيقة إنما ندركها بلمحة نافذة من لمحات الفكر الواعى المنبه، هى نظرة ذهنية بلغت من الوضوح مبلغاً يزول معه كل شك ؛ فهى حدس عقلى، أى رؤية ذهنية سريعة مباشرة، وليست قياساً يتم فى زمان ولا استدلالاً منطقياً يتدرج من "المبادئ" إلى "النتائج". ومن هنا يرى "ديكارت" "أنا أعرف نفسى الآن موجوداً ولا أعرف نفسى إلا كذلك، ووجود الفكر أشد ثبوتاً من وجود الجسم. وطبيعة النفس وماهيتها هى الفكر، والنفس مستقلة عن الجسم، ومعرفتها أيسر"، فيقول :

« كل ما عرفت حتى الساعة هو أننى شىء مفكر. وسأحاول الآن أن أوسع مجال معرفتى. أنا مستيقن أنى شىء مفكر، فما هو شرط هذا الاستيقان ؟ وما علامة هذه المعرفة الحقة ؟ شرطها وعلامتها هو كونها واضحة كل الوضوح، فكل ما أعرفه بهذا الوضوح فهو حق لأنه لو كان شىء مما هو معروف بمثل هذا الوضوح خطأ لكانت قضية " أنا شىء مفكر " قضية غير صحيحة » (20).

من هذا اليقين، يقين الذات المفكرة، استخلص "ديكارت" جميع الحقائق الأخرى: استخلص أولاً التمييز الحاسم بين النفس والجسم، واستخلص أيضاً أن جوهر النفس هو الفكر وأن جوهر الله هو الكمال .

★★ الطريق إلى الله

إن الفلسفة الديكارتية قد سلكت مسلكاً فريداً فى التاريخ الفلسفى: سار الفيلسوف من النفس إلى الله مباشرة وبغير واسطة. ولم يرد أن تكون معرفتنا لوجود الله عن طريق العالم – كما فعل غيره من الفلاسفة واللاهوتيين – بل رأى على العكس من ذلك، أن المعرفة بوجود الله هى التى تفتقر إلى وجود الله سنداً لها.

والدليل على وجود الله من وجود النفس بسيط وميسور، فأنا موجود وفى نفسى فكرة "الكائن الكامل". وعلى هذا الأساس أقام الفيلسوف أدلة ثلاثة: أهمها

الدليل المشهور بـ "الدليل الأنطولوجى" وقد سمى بذلك لأنه يستخلص وجود الله من نفس تعريف الله أو معناه. فإننا إذن سلمنا أن الله هو الكائن المتصف بجميع الكمالات [21].

★★ من الله إلى العالم

الله موجود ومتصف بضروب الكمال كلها. يقول "ديكارت":

« أستطيع الآن أن أتقدم فى سيرى إلى الحقائق، وأستطيع بادئاً من « الذات المفكرة» التى هى « أنيتى » و« ماهيتى » ومن كمال الله أن يضمن لى صدق الأفكار الواضحة، أن أثبت يقين العالم الخارجى ».

وجود الله هو الذى يضمن وجود العالم الخارجى، لكن العالم الخارجى لا يمكن أن يكون وجوده الحقيقى على نحو ما نعرفه بحواسنا، لأن الحواس إنما هى أفكار غامضة مبهمة لا تؤدى إلى اليقين. والضمان الإلهى يفيد فى أن ما يصح أن يوجد حقاً إنما هو ما يكون موضوعاً لفكرة واضحة متميزة. فإذا بحثنا لم نجد فى تصورنا للعالم الخارجى إلا فكرة واحدة متميزة هى فكرة "الامتداد". الامتداد وحده هو الصفة الأولى، وهو جوهر الجسم المستقل عن جوهر النفس.

ويتبين مما سبق، أننا لا نعرف العالم الخارجى، معرفة مباشرة بالحواس، ولا ندركه إدراكاً كما هو فى ذاته، وكل ما نعرفه عنه هو الصور الذهنية والأفكار التى فى أذهاننا. أما أن هذه الصور والأفكار مطابقة لموجودات حقيقية لا وهمية، فهذا ما لا نعلمه إلا بالواسطة، أى بفضل "الصدق الإلهى" [22].

* * * *

مراجع الفصل الأول من الباب الثانى

(1) د. عثمان أمين، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، 1975، ص19.

(2) ديكارت، مبادئ الفلسفة، ترجمة د. عثمان أمين، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ص12. من مقدمة المترجم.

انظر أيضاً:

Scruton, Roger, Modern Philosophy, New York, 1997, p. 10.

(3) ديكارت، مبادئ الفلسفة، ص42.

(4) انظر فى ذلك: د. عبد الرحمن بدوى، موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، ص488.

أيضاً: د. نجيب بلدى، ديكارت، سلسلة نوابغ الفكر الغربى، دار المعارف، ص13.

أيضاً: ديكارت، المقال فى المنهج، ترجمة محمود محمد الخضرى، مراجعة د. محمد مصطفى حلمى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص79 من مقدمة المترجم.

(5) د. عثمان أمين، ، ديكارت، مكتبة القاهرة الحديثة، 1965، ص32.

أيضاً:

James Collins, A History of Modern European Philosophy, p. 138.

(6) د. عثمان أمين، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية، ص ص20 – 21.

(7) نقلاً عن : د. عثمان أمين، ديكارت، ص 80.

انظر أيضاً :

Steven, Nadier, A Companion to Early Modern Philosophy, Blackwell, 2002, p. 20.

(8) نقلاً عن: د. عبد الرحمن بدوى، المرجع السابق، ص ص491 – 492.

(9) ديكارت، قواعد لهداية العقل، القاعدة "3" نقلاً عن د. عثمان أمين، ديكارت، ص90.

قارن أيضًا :

René Descartes , Discourse on Method and Related writings, Trans by Desmond M , Clarke , London , New York, Penguin , 1999 .

(10) د. عثمان أمين، المرجع السابق، ص92.

انظر أيضاً :

James Collins, op. cit., p. 145.

(11) راجع يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص63.

(12) ديكارت، قواعد لهداية العقل، القاعدة الأولى نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوى، موسوعة الفلسفة، ص492.

(13) د. عثمان أمين، ديكارت، ص 102.

(14) المرجع السابق، ص108.

(15) د. نازلى إسماعيل حسين، الفلسفة الحديثة، ص ص75 – 76.

(16) ديكارت، التأملات فى الفلسفة الأولى، ترجمة د. عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ص71 – 72.

قارن أيضًا :

- George Dicker , Descartes : an analytical and Historical introduction , New York , Oxford university Press ,

1993 .

(17) المرجع السابق، ص80.

(18) انظر: د. حسين على، ما هى الفلسفة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2004، ص ص127 – 128.

(19) د. عثمان أمين، ديكارت، ص ص147 – 148.

(20) ديكارت، التأملات فى الفلسفة الأولى، ص115.

(21) انظر: د. عثمان أمين، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية، ص24.

(22) د. عثمان أمين، ديكارت، ص221.

* * * *